نحو براديغم جديد*

إدغار موران**، ترجمة وتقديم: د. يوسف تيبس***

يتلخص فكر إدغار موران في تبيان خاصية تعقيد العالم والإنسان، ما يستلزم منهجاً يتطابق مع هذه الخاصية. وهو التصور الذي قاده إلى إعادة النظر في مفاهيم فلسفية وعلمية من قبيل النظام واللانظام، والنسق، والمعلومة، والكائن الحي، والمعرفة، واللغة، والمنطق، والبراديغم، والهوية، والقيمة الأخلاقية... معتمداً إبستيمولوجيا جديدة هي إبستيمولوجيا التعقيد، أو لنقل براديغماً معرفياً جديداً يتكون من نظرية الإعلام ونظرية الأنساق والربانية، إضافة إلى أفكار بعض الفلاسفة والعلماء وبعض المبادئ أهمها مبدأ الحوار المنطقي.

تنبني إبستيمولوجيا إدغار موران على فكرة استحالة تأسيس العقل على منطق أحادي تقليدي، لأن العلم المعاصر قد تجاوز أهم مبادئ هذا المنطق، أقصد، مبدأ عدم التناقض والثالث المرفوع من خلال الإقرار بثنائية مكونات الضوء وامتناع البت في تمام الأنساق المصورنة واتساقها. وهو ما يعني أن استمرار اعتماد العلم على المنطق التقليدي سيفقده أهم خصائصه: الإبداع والابتكار والتعقيد. بيد أن هذا لا يستلزم، في نظر موران، **ترك المنطق لأن استعمال المنطق أمر ضروري للفهم، وتجاوزه ضروري للذكاء؛ والاستناد إلى المنطق ضروري للتحقق، وتجاوزه ضروري للحقيقة**.

هكذا، تكون العقلانية الحقيقية هي تلك التي تعترف بحدودها، لأن المنطق لا يستطيع تأسيس العقل، وتقدر على معالجة هذه الحدود؛ أي تصبح نظرية للنظرية بالنسبة لذاتها كي تتجاوز هذه الحدود وتعترف في الوقت نفسه بأفق لا يقبل العقلنة.

إن المشكل بالنسبة للإنسان المواطن، في نظر موران، هو: كيفية الحصول على المعلومات حول العالم، وكيفية اكتساب كفاءة تقطيعها وتنظيمها، الأمر الذي يستلزم «إصلاح الفكر»، أي ملء الثغرات التي يعرّفها الفكر الإنساني **بفكر التعقيد**. باختصار شديد يمكن أن نسم فكر إدغار موران بـ«إصلاح الفكر» بواسطة إعمال **منهج المنهج** في جميع جوانب الوجود والفكر الإنسانيين. وخير دليل على ذلك هو التسمية المضاعفة لعناوين أجزاء كتابه الموسوعي **المنهج** «طبيعة الطبيعة»، و«حياة الحياة»، و«معرفة المعرفة»، و«إنسانية الإنسانية».

يمثل فكر التعقيد براديغماً جديداً تَولّد عن حدود العلوم المعاصرة وتطورها معاً. ولا يتخلى عن مبادئ العلم التقليدي، بل يدمجها في خطاطة أوسع وأغنى.

إن التعقيد هو التحدي الأعظم للفكر المعاصرة، لأنه يستلزم إصلاحاً لنمط تفكيرنا. بُنِي الفكر العلمي التقليدي على ثلاث مرتكزات هي: «النظام» و«القابلية للانفصال» و«العقل». والحال أن أسس كل واحد منها قد تزحزح بسبب تطورات العلوم ذاتها التي بنيت في الأصل على هذه المرتكزات الثلاثة.

مرتكزات العلم التقليدي: نشأ مفهوم «النظام» عن التصور الحتمي والميكانيكي للعالم. وعليه، كان يعتبر اللانظام نتيجة لجهلنا المؤقت. ويوجد وراء هذا اللانظام الظاهر نظام خفي يتطلب الاكتشاف. تم التشكيك في فكرة النظام الكلي أولاً من قبل الديناميكا الحرارية التي اعترفت بوجود اضطراب جسيمي غير منظم في الحرارة. ثانياً، من قبل الفيزياء الجزيئية. ثالثاً، من طرف الفيزياء الكوسمية، وحالياً من طرف فيزياء الفوضى. توقفت فكرتا النظام واللانظام عن التنافي بإطلاق: يمكن، من جهة، أن يتولد نظام تنظيمي من شروط مجاورة للتدَوُّم؛ ويمكن، من جهة أخرى، أن يتولد اللانظام من الحالات الأولية المحددة.

لا يسعى فكر التعقيد إلى استبدال فكرة اللانظام بالنظام، بل إلى خلق حوار منطقي[1] بين النظام واللانظام والتنظيم.

أما المرتكز الثاني للفكر التقليدي فهو مفهوم «القابلية للانفصال»، الذي يناظر المبدأ الديكارتي، مفاد هذا الأخير أن دراسة الظاهرة أو حل المشكل يستلزم تفكيكه إلى عناصر بسيطة. تُرجم هذا المبدأ، في المجال العلمي، من جهة إلى التخصص، ثم إلى التخصص الدقيق في الميادين المعرفية، ومن جهة أخرى إلى فكرة إمكان اعتبار الواقع الموضوعي بغض النظر عن الملاحظ. والحال أنه منذ ربع قرن تطورت «علوم نسقية» تربط ما يدرس بشكل منفصل من قبل العلوم التقليدية. يتكون موضوعها عبر التفاعلات بين العناصر وليس عبر فصلها. فموضوع علم البيئة هو الأنساق البيئية والمجال الحيوي، التي تشكل مجموعات متعالقة ترجع بشكل منفصل إلى

علم الحيوان، وعلم النبات، والبيولوجيا المجهرية، والجغرافيا، والعلوم الفيزيائية، . . . الخ. تتصور علوم الأرض كوكبنا كنسق معقد ينتج ذاته بذاته وينتظم ذاتياً؛ وعليه تجمع بين علوم كانت منفصلة من قبل مثل الجيولوجيا، وعلم الطقس، وعلم البراكين، وعلم الزلازل، . . . الخ. هناك سمة أخرى للقابلية للانفصال هي التمييز بين المُلاحِظ والملاحظة. غير أن الفيزياء المعاصرة قد أعادت النظر فيها. فنحن نعلم في الفيزياء المجهرية، منذ فيرنار هايزنبيرغ، أن المُلاحِظ يتفاعل مع ملاحظته. أصبح واضحاً أنه لم يعد يتعالى أي عالم اجتماع أو اقتصاد، في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مثل نجمة سيروس، على المجتمع. إنه جزء من هذا المجتمع، والمجتمع ككل يوجد بداخله. ففكر التعقيد لا يستبدل عدم القابلية للفصل بالقابلية للانفصال، بل يدعو إلى حوار منطقي يستعمل القابل للانفصال، لكنه يدمجه في غير القابل للانفصال.

إن المرتكز الثالث لأسلوب تفكيرنا هو المنطق الاستقرائي-الاستنباطي-التماثلي (La logique inductive-déductive-identitaire) الذي يكافئ العقل المطلق. كان العقل التقليدي يقوم على المبادئ الثلاثة: الاستقراء والاستنباط والهوية (أي رفض التناقض). وجهت أول ضربة قاضية للاستقراء، الذي يسمح باستنتاج قوانين عامة من حالات جزئية، من طرف كارل بوبر.[2] فقد أصاب كارل بوبر عندما أقر باستحالة استنتاج قانون عام من قبيل «كل بجع أبيض» لمجرد أننا لم نجد أبداً بجعاً أسود. لا شك في أن الاستقراء له قيمة تفسيرية لكن ليس له قيمة البرهان القاطع. يبين برهان عدم التمام لكورث جودل (K. Gödel) أن النسق الاستنباطي المُصوْرَن لا يستطيع البرهنة بإطلاق على صحته ذاتياً. والشيء نفسه برهن عليه ألفريد تارسكي في المنطق الدلالي: لا نسق يتوفر على الوسائل الكافية لتفسير ذاته. من الممكن أن نجد في بعض الحالات برهاناً أو تفسيراً في الأنساق الفوقية، لكن هذه الأخيرة تتضمن هي نفسها ثغرات. ومن المؤكد أنه بإمكاننا وضع «وجهات نظر فوقية» (Métapoints de vue): فإذا أردت مثلاً أن أعرف مجتمعي، بإمكاني أن أقارن بين المجتمعات المعاصرة، أو أن أدرس المجتمعات القديمة المناقضة، بل أستطيع أن أتخيل مجتمعات «ممكنة». وهو ما يسمح لي بإنشاء نوع من الشرفة أستطيع أن ألاحظ انطلاقاً منها مجتمعات أخرى خارجية مع البقاء داخل مجتمعي. غير أنه لا يوجد أبداً نسق فوقي نظري يمكننا من تجاوز وضعنا الاجتماعي أو وضعنا الإنساني، أي يجعل منا كائنات فوق اجتماعية أو فوق إنسانية.

أخيراً، أدت تطورات بعض العلوم من قبيل الفيزياء الذرية أو الفيزياء الكونية، بشكل تجريبي وعقلاني، إلى تناقضات يستحيل تجاوزها كما هو حال الطبيعة المتناقضة الظاهرة للذرة (موجة/ جسيم)، وتلك الخاصة بأصل الكون والمادة والزمان والمكان.

هكذا، وعلى الرغم من أننا لا نستطع الاستغناء عن المنطق الاستقرائي-الاستنباطي-التماثلي، فإنها ليست مع ذلك سبيلاً لليقين والبرهان المطلقين. لا يطالب الفكر المعقد بترك هذا المنطق، بل بتأليف حواري منطقي بين استعماله مقطعاً مقطعاً وخرقه في الثقوب السوداء، حيث يتوقف عن العمل.

النظريات الثلاث: زحزحت تطورات العلوم المعاصرة هذه المرتكزات الثلاثة، النظام والقابلية للانفصال والعقل المطلق، فانعكس ذلك على أسلوب تفكيرنا. وعليه كيف نسير في عالم لم يعد النظام فيه مطلقاً، وحيث القابلية للانفصال محدودة، وحيث يشمل المنطق في ذاته ثغوراً؟ هذا هو المشكل الذي يواجه فكر التعقيد.

أول مخرج نسلكه هو ما نصطلح عليه اليوم بـ«النظريات الثلاث»، وهي: نظرية الإعلام، ونظرية الرُّبانية (السيبرنطيقا)، ونظرية الأنساق. ظهرت هذه النظريات المترابطة والحميمية في بداية الأربعينيات وتخاصبت فيما بينها.

نظرية الإعلام: أداة لمعالجة اللايقين والمفاجأة وغير المتوقع. ذلك أن المعلومة التي تعين الفائز في معركة تحل مشكل اللايقين؛ والتي تخبر بالموت المفاجئ لمستبد تأتي بغير المتوقع والجديد في الوقت نفسه. يسمح مفهوم المعلومة بالدخول في عالم يوجد فيه النظام (التكرار) واللانظام (الضجيج)، وأن يستخرج منها الجديد (المعلومة ذاتها). إضافة إلى أن المعلومة يمكن أن تتخذ صيغة تنظيمية (تُبرمِج) في ثنايا آلة ربانية. فتصبح آنئذ المعلومة هي ما يتحكم في الطاقة وما يمنح الآلة الاستقلالية.

الربانية: تمثل في حد ذاتها نظرية في الآلات المستقلة. فقد قطعت فكرة رد الفعلي الراجع، التي أدخلها نوربيرت فينار (Norbert Wiener)، مع مبدأ العلية الخطي، عندما استبدلها بفكرة العلية الدائرية: (ب) تؤثر في (ج) و(ج) تؤثر عوداً في (ب)؛ أي أن العلة تؤثر في المعلول، وهذا يؤثر بدوره في العلة، كما هو الحال في جهاز التدفئة، حيث يقنن مثبت الحرارة اشتغال مولّد البخار. إن هذه الآلية المسماة بـ«التقنين» هي التي تسمح باستقلالية الجهاز، في حالتنا هذه الاستقلال الحراري للشقة بالنظر إلى الحرارة الخارجية.

طالبات في مدرسة غزة للموسيقى فرحات بعودتهن إلى المقر الجديد.

تاريخ فكرة التعقيد

الرواد

أدرك العديد من كبار فلاسفة الغرب، من قبيل هرقليطس، وكانط، وهيجل، ونيتشه، وهوسرل، أهمية فكرة التعقيد وحدود «العقد الخالص». لا شك في أن باسكال هو الذي أدرك بشكل أفضل التناقضات المنطقية المؤسِّسة للواقع الفيزيائي والإنساني، واستحالة اختزال هذا العالم إلى مجموعة من المكونات البسيطة.

نظرية الأنساق الربانية

حدث نقاش فكري حاد في نهاية الأربعينيات بالولايات المتحدة حول جماعة من العلماء أبدعت الربانية (نوربرت فينار)، ونظرية الأنساق، ونظرية الإعلام (كلود شانون Claude shannon). وبالموازاة تم ابتكار الحاسوب والإعلاميات، والأجهزة الأولى للتحكم الإلكتروني.

ندوات ماسي (Macy)

نظمت ندوات ماسي، من 1946 إلى 1953، في نيويورك برعاية مؤسسة ماسي. جمّعت هذه الندوات التسعة فريقاً من العلماء من مشارب مختلفة حول المواضيع الأساسية لنظريات التعقيد. من بين الحاضرين نذكر عالم الرياضيات جون فون نويمان، وعالم الأنثروبولوجيا جريجوري باتيسون، وعالم الاجتماع بول لازارفيلد، وعالم النفس كورث ليوين، وعالم الفيزيولوجيا العصبية واران ماكولوتش، وعالم الرياضيات نوربيرت فينار، حيث كان هانز فون فوستر سكرتيراً لهذه الندوات التي ناقشت الأنساق والربانية وعلوم العقل.

النظام بواسطة الضجيج

صاغ فون فوستر في سنة 1960 مفهوم النظام بواسطة الضجيج (order from noise). مثال: يتخيل جهازاً على شكل ركام من المكعبات، ممغنط من ثلاثة أوجه تزحزح فتتجمع عفوياً في بناء مهيكل. وفي سنة 1968 نشر لودفيج فون بيرطالان في (Ludwig von Bertalanffy) كتابه: النظرية العامة للأنساق (*La Théorie générale des systèmes*).

نظرية الفوضى

التأثر بالشروط الأولية، الجواذب الغريبة، الصور النمطية الهندسية المتكررة . . . ظهرت نظرية الفوضى في الأرصاد الجوية ثم في علوم الطبيعة. بالموازاة مع ذلك، ظهرت نظرية الكوارث على يد عالم الرياضيات روني طوم.

التنظيم الذاتي

1977: حصل ليا بريجوجين (Llya prigogine) على جائزة نوبل نظير بحوثه في البنيات التبديدية. وقام هنري أطلان، في البيولوجيا، بصَوْرَنَة نظرية للتنظيم بواسطة «الضجيج» (أي الصدفة، اللانظام) قابلة للتطبيق على الأنساق الحية (Le cristal et la fumée, 1979). كما اقترح عالما البيولوجيا من أصل شيلي، فرانسيسكو فاريلا وهومبيرطو ماتورانا، نظرية «الآلات بروتية Prïétiques» (تتوالد ذاتياً).

من 1977 إلى 1992: نشر إدغار موران **المنهج** (La Méthode) في أربعة أجزاء تتعلق كلها بفكر التعقيد.

1987: تم إنشاء معهد سانطا في (ولاية المكسيك الجديدة، الولايات المتحدة)، وهو مركز متعدد التخصصات يعنى بعلوم التعقيد.

جون فرانسوا دورتيه

إن «التوازن الحيوي» (Homéostasie) في حالة الجهاز العضوي الحي، كما بيّن ذلك والتار كانون بوضوح كبير في كتابه **حكمة الجسد** (The Wisdom of the Body)، (1930)، هو مجموعة من العمليات المنظّمة تتأسس على العديد من ردود الأفعال الراجعة. تمكن حلقة الفعل الرّاجع (المسماة التغذية الراجعة)، في صيغتها السالبة، من استقرار الجهاز، ومن تقليل الانحراف، كما هو الحال بالنسبة للتوازن الحيوي. تكون التغذية الراجعة، في صيغتها الإيجابية، جهاز تضخيم، مثلاً عند الصعود إلى الحالة القصوى من النزاع المسلح. فعنف زعيم يؤدي إلى رد فعل عنيف، يستتبع بدوره رد فعل أكثر عنفاً. مثل هذه التفاعلات، المتعاظمة أو المستقرة كثيرة في الظواهر الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية والسيكولوجية. لقد أدرك ماركس فكرة التفاعل عندما أقر أن البنية التحتية المادية للمجتمع تنتج البنية الفوقية (الاجتماعية، والسياسية، والإيديولوجية)، لكن البنية الفوقية تؤثر في المقابل على البنية التحتية المادية.

نظرية الأنساق: تضع الأسس لفكر التنظيم. أول درس نسقي هو: «الكل أكبر من مجموع الأجزاء»، ما يعني وجود خصائص تنجم عن تنظيم الكل، ويمكن أن تؤثر عوداً على الأجزاء. هكذا يحتاز الماء خصائص منبثقة بالنظر إلى الهيدروجين والأكسجين اللذين يكونانه. أضيف كذلك أن الكل أقل من أجزائه لأن هذه الأخيرة قد يكون لها خصائص يمنعها تنظيم الكل. تساعدنا نظرية الأنساق أيضاً على التفكير في تراتب مستويات التنظيم، وفي الأنساق الفرعية وتداخلها، . . . الخ. يقحمنا مجموع هذه النظريات الثلاث (نظرية الإعلام، ونظرية الربانية، ونظرية الأنساق) في عالم الظواهر المنظّمة، حيث يتم التنظيم مع اللانظام وضده.

التنظيم الذاتي: يجب أن نضيف إلى هذه النظريات الثلاث التطورات المفاهيمية التي لحقت فكرة التنظيم الذاتي. الجدير بالذكر هنا أسماء من قبيل جون فون نيومان (J. V. Neumann)، وهانز فوستر، وهنري أطلان، وليبا بريجوجين. وضع جون فون نيومان، في نظريته الخاصة بالآلات المنظمة ذاتياً، سؤالاً حول الفرق بين الآلات المصنّعة و«الآلات الحية». فصاغ بدقة المفارقة التالية: تصنع مكونات الآلات الاصطناعية بإتقان ودقة، إلا أنها تبدأ في التلف بمجرد ما تبدأ في الاشتغال. في المقابل تتكون الآلات الحية من عناصر أقل متانة بكثير من قبيل البروتينات التي تنحل باستمرار. بيد أن هذه الآلات تمتلك خصائص عجيبة كالتطور وإعادة الإنتاج، وإعادة التكون الذاتي عبر استبدال جزيئات جديدة بالجزيئات الفاسدة. والخلايا الجديدة بالخلايا الميتة. وإذا كانت الآلة المصنّعة تستطيع إصلاح ذاتها، أو أن تنتظم ذاتياً وأن تتطور، فإن الآلة الحية تتكون باستمرار بواسطة موت خلاياها وفقا لمبدأ هرقليطس: «الحياة من الموت، والموت من الحياة».

يكمن مرتكز فون فوستر في اكتشافه لمبدأ «النظام بواسطة الضجيج» (order from noise)، ذلك أن المكعبات المغنطة من وجهين تنتظم في مجموعة متناسقة بواسطة تركيب عفوي تحت تأثير طاقة غير توجيهية، وفقا لمبدأ النظام (التمغنط). وبذلك نكون أمام صدور النظام من اللانظام.

بناء على ما سلف تمكن هنري أطلان من تصور نظريته في «الصدفة المنظّمة». إذ يوجد حوار منطقي، نظام/ لانظام/ تنظيم، عند خلق الكون نتيجة تقلب حراري (اللانظام)، حيث تسمح مبادئ النظام، في بعض الحالات (لقاءات بالصدفة)، بتكوين النواة والذرات والكواكب والنجوم. نجد هذا الحوار المنطقي أيضاً عندما تنبثق الحياة جراء تلاقي الجزئيات الكبرى في ثنايا حلقة تتوالد ذاتيا، فتغدو تنظيماً ذاتياً حياً. ينشط الحوار المنطقي بين النظام واللانظام والتنظيم بواسطة تفاعلات غير معدودة، وبصيغ متنوعة إلى حد كبير، باستمرار في عوالم الفيزياء والبيولوجيا والإنسان.

أدخل بريجوجين فكرة التنظيم انطلاقاً من اللانظام بواسطة الديناميكا الحرارية للصيرورات غير المنعكسة بشكل مختلف. ومن ثم نرى في مثال الدردورات لبينارد (Benard)، كيف تتشكل البنيات المتناسقة وتصون بعضها البعض معتمدة عتبة محددة من الاضطراب، ووراء عتبة أخرى، ضمن شروط تخص اللانظام المتزايد. تحتاج هذه التنظيمات، من دون شك، إلى التزود بالطاقة، وإلى استهلاكها وبالتالي تبديدها من أجل البقاء. أما الكائن الحي فيكون مستقلاً بالقدر الكافي كي يستمد الطاقة من بيئته، بل ويستنبط المعلومات منها ويدمج فيها التنظيم. وهو ما أسميه: «التنظيم الذاتي للبيئة» (auto-eco-organization).

من دورة «دراما ثيربي» نظمها مسرح الحرية في جنين.

الظاهر أن فكر التعقيد أشبه ببناية متعددة الطوابق. يتشكل أساسها من النظريات الثلاثة (الإعلام والربانية والنسق)، ويشمل أدوات ضرورية لنظرية التنظيم. يليه طابق ثان متكون من أفكار جون فون نيومان وفون فوستير وليبا بريجوجين حول التنظيم الذاتي.

أود أن أضيف إلى هذه البناية عناصر مكملة، أقصد، ثلاثة مبادئ: مبدأ الحوار المنطقي (Dialogique)، مبدأ التكرار (récursion)، مبدأ النحو العام (Hologrammatique).

- **مبدأ الحوار المنطقي**: يجمع بين مبدأين أو مفهومين متعارضين، يفترض أن يكونا متدافعين لكنهما متلاحمان وضروريان لفهم الواقع نفسه. هكذا أقر نيلز بوهر مثلاً بضرورة اعتبار الجزيئات الفيزيائية جسيمات وموجات في الوقت نفسه. كما يقول باسكال: «إن نقيض الحقيقة ليس الخطأ، بل حقيقة مضادة. وهو ما يترجمه نيلز بوهر في قوله: «إن الحقيقة المبتدلة خطأ بليد، لكن نقيض حقيقة عميقة هو دائماً حقيقة عميقة». فالمشكل يكمن في تجميع مفاهيم متعارضة للتفكير في الصيرورات المنظمة والمنتجة والخلاقة في عالم الحياة والتاريخ الإنساني المعقد.
- **مبدأ التكرار التنظيمي**: يتجاوز رد الفعل الراجع (التغذية الراجعة)؛ ويتجاوز مفهوم التقنين إلى مفهومي الإنتاج الذاتي والتنظيم الذاتي. إنه عبارة عن حلقة مولِّدة تكون فيها المنتوجات والنتائج نفسها مبدعة لما ينتجها. وعليه، نكون، نحن الأفراد، منتوجات لإنتاج متجذر في أعماق التاريخ، غير أن هذا النسق لا يستطيع إعادة إنتاج ذاته، إلا إذا غدونا نحن أنفسنا منتجين عن طريق التزاوج. ينتج أفراد الإنسانية المجتمع ضمن التفاعل وبواسطته، بيد أن المجتمع ينتج الإنسانية، باعتباره كلاً منبثقاً، من هؤلاء الأفراد، ويمدهم باللغة والثقافة.
- **مبدأ النحو العام**: مهمته توضيح المفارقة الظاهرة لبعض الأنساق، حيث لا يوجد الجزء فقط ضمن الكل، بل يوجد الكل أيضاً ضمن الجزء. ذلك أن كل خلية هي جزء من الكل-الجهاز العضوي الحي الشامل- بل إن الكل ذاته يوجد ضمن الجزء: يوجد الخبر الوراثي الكلي في كل خلية فردية على حدة. وبالمثل يشكل الفرد جزءاً من المجتمع، لكن المجتمع يوجد أيضاً في كل فرد، باعتباره كلاً، من خلال اللغة والثقافة ومعاييره.

حاصل القول، يقترح فكر التعقيد عدداً معيناً من أدوات التفكير الناجمة عن النظريات الثلاث، ومفاهيم التنظيم الذاتي، وتطور أدواتها الخاصة. كما لا يرفض فكر التعقيد بتاتاً اليقين ليعوضه باللايقين، ولا يرفض الفصل من أجل امتناع القابلية للفصل، ولا يرفض المنطق ليبيح التهافت. بل العكس، يتطلب **المنهج** التراوح الدائم بين اليقين واللايقين، بين الأولي والكلي، بين القابل وغير القابل للانفصال. كما يستعمل المنطق التقليدي ومبادئ الهوية وعدم التناقض والاستنباط والاستقراء، لكننا نعرف حدوده، ونعلم ضرورة خرقها في بعض الحالات. لا يتعلق الأمر إذن بترك مبادئ العلم التقليدي -النظام، والقابلية للانفصال والمنطق- بل بإدماجها في خطاطة أوسع وأغنى. كما لا يتعلق الأمر بوضع تعارض بين نزعة شمولية فارغة وأخرى اختزالية نسقية؛ بل بإعادة ربط الأواصر بين الأجزاء العينية والكل؛ أي، يجب خلق تمفصل بين مبادئ النظام واللانظام. والفصل والوصل والاستقلالية. والتبعية التي تكون في الحوار المنطقي (متكاملة ومتنافسة ومتعارضة). في ثنايا الكون. حاصل القول، لا يناقض فكر التعقيد الفكر التبسيطي، بل يدمجه؛ أو كما يقول هيجل، يقوم بالجمع بين البساطة والتعقيد، بل وحتى في النسق الفوقي الذي يبني ويبرز بساطته الخاصة. يمكن الإعلان عن براديغم التعقيد بطريقة لا تقل عن براديغم البساطة: فإذا كان هذا الأخير يرفض الفصل والاختزال، فإن براديغم العقيد يلزمنا بالربط والتمييز في الوقت نفسه.

الهوامش

* Edgar Morin, *Vers un nouveau paradigme,* revue sciences Humaines, n 47, février 1995.

أعيد نشره في:

Philosophies de notre temps, coordonné par Jean-François Dortier, éd. Sciences Humaines 2000, pp. 255262-.

** عالم اجتماع، وفيلسوف ومدير البحث العلمي بالمركز الوطني للبحث العلمي (CNRS) بفرنسا. من أهم مؤلفاته: **المنهج**، في 6 أجزاء.

*** أستاذ المنطق والفلسفة المعاصرة، جامعة محمد بن عبد الله، فاس، المغرب.

[1] (Dialogique) بالمعنى المتداول هو «ما يكون في صيغة حوار». تم إدخال فكرة الحوار المنطقي في اللسانيات بواسطة الروسي ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtine) (1895-1975). فدلالة اللفظ، بالنسبة إليه، ليست انعكاساً لماهية (الموضوع أو الفكر) وحيدة. فاللغة نتاج بالدرجة الأولى للحوار، وتعْبُر المعاني المختلفة الألفاظ نفسها التي تسند إليها خلال التفاعل الشفاهي. «إن اللفظ عبارة عن قنطرة بين الأنا والآخرين. فإذا استند إلي في طرف، فإنه يستند في الطرف الثاني إلى مُحاوري. إن اللفظ هو الأرضية المشتركة بين المحاور والمُحاوَر» (le Marxisme et la philosophie de language, 1929).

يؤدي مبدأ الحوار المنطقي إلى تصور مذاهب وأفكار كنتيجة للحوار-قد يكون أحياناً مضمراً- الذي يتم بين المؤلفات المتجاوبة فيما بينها. لأنها تستقي من بعضها البعض المفاهيم، وتتكون بمواجهة بعضها البعض وبالتحاور. لا يمكن فهم كل مؤلَّف بمعزل عن غيره، بل باعتباره منخرطاً في هذه الشبكة من التفاعلات.

أما إدغار موران فيستعمل مفهوم الحوار المنطقي للدلالة على فكرة مفادها تعايش وانتشار منطقيات مختلفة في كل أمر إنساني، لا تقبل الاختزال إلى إحداها: "يعني الحوار المنطقي استحالة بلوغ مبدأ وحيد، لفظ متسيِّد، أياً كان" (La Methode، t. 2).

يناظر هذا المفهوم مفهوم المناظرة عند العرب التي تنبني على فكرة التعاون بين المتحاورين على إظهار الحقيقة، وخير نموذج لذلك المناظرة المشهورة بين متى بن يونس وأبو سعيد السيرافي التي أوردها أبو حيان التوحيدي في كتابه **الإمتاع والمؤانسة**.

[2] راجع بهذا الصدد مقالنا: د. يوسف تيبس: "معيار العلم أو القابلية للإبطال"، مجلة **عالم الفكر** المجلد 37، العدد 2، 2008.